مقدمة إلى كافكا

تأليف : فيليب زاف
ترجمة : ماهر البطوطي

يرتبط فرانز كافكا اليوم في الأذهان الأدبية ارتباطا شديدا بأسماء مثل جيمس جويس ومارسيل بروست ويبتس وريلكة واليوت ، وهم من أطلق عليهم بحق الأبطال المقدسين الذين لا يموتوا ـ للنزعة الخلاقة الحديثة .

وهو ينفرد بينهم بأنه الوحيد الذي لم يتمتع بنجاح شعبي ذي أهمية ابان حياته ، لأنه حجب قصصه الطويلة عن النشر . ولهذا لم تتعد شهرته حلقة صغيرة من الكتاب الألمان ، ولم تأته الشهرة العالمية الا في العقدين الأخيرين ، بعد وفاته .

واول مرة ظهرت فيها ترجمة لاحدى رواياته ـ القلعة ـ كانت في عام ١٩٣٠ ، بعد أن مضى على وفاته ست سنوات ، والقلعة رواية تسطع عاليا في سماء الأدب الكافكي ؛ وحين ظهرت في البداية لم يتمكن من سبر غور قيمتها الحقيقية سوى عدد قليل من القراء ، بل انه حين ظهرت « المحاكمة » في عام ١٩٣٧ ، لم يكن المعنى الذي قدمه كافكا والدوافع الأساسية عنده هي التي أثارت الاهتمام بقدر ما أثاره الالغاز الظاهر في كتاباته . وقد أدهشت رواياته القراء ، غير أنهم لم يقتنعوا الاقتناع الكافي بأهميتها . ومنذ هذا الوقت ، جرت قوة الحس التي تمثل سمة قوية من سماته ، جرت في شريان الدماء الذي يتخلل أدب القرن العشرين . وقد أصبح كافكا موضوعا لدراسات نقدية عديدة في كثير من اللغات . وفي جميع الأنحاء ، اتخذ الكتاب الشبان رقيقو الحس ، الذين شعروا بالحالة المتجمدة للأساليب الروائية السائدة والذين كانوا جاهدين في البحث عن تجديدات خلاقة ، اتخذوا مثاله الذي اتبعه مأخذا جديا .

ولم يعد هناك شك في منزلة كافكا كفنان على النهج الميتافيزيقي الذي يهتم بالتركيب النهائي للوجود الانساني أو في اصالته الفائقة كمجدد في الأسلوب الخلاق . ومثل « ريلكه » في « مرثيات دوينو » يلقى كافكا بالسؤال الخالد : « ما هو الحقيقي في هذا العالم ؟ » .

وكافكا سيد من سادة النسق القصصي ، اسلوبه دقيق ذو تحفظ ساخر ، وهو يجمع في رواياته بين الحقيقي وغير الحقيقي ، بين ذاتية المضمون الخالصة وأشكال غاية في الموضوعية ، بين صورة صحيحة ودودة عن العالم الخارجي والتحلل الحلمي لهذا العالم .

وعن طريق توحيد هذه العناصر المتضادة تمكن كافكا من تحقيق ملاءمات جوهرية جديدة لمصادر الكتابة النثرية . يمكننا القول بذلك الى أبعد الحدود دون أن نتقيد

باعطاء تقدير نقدى متكامل لأعماله ، لأن مثل هذا التقدير يكون سابقا لأوانه نوعا ما الآن ، ويكفينا أن نعطى تحليلا ووصفا لصفات هذه الأعمال · وهكذا يتضح أنه لو كان كافكا يضطرنا الى الاحساس بأواصر الصلة بيننا وبينه وبالتماثل القوى القلق ، فان ذلك يرجع الى الصفة القوية التى يتسم بها شعوره بتجربة الضياع الانسانى ، بالغربة والاثم والقلق ، وهى تجربة تزداد تسلطا فى العصر الحديث ·

ولا مراء فى أن كافكا واحد من اكثر الفنانين الأدبيين عصابية ، وهذا ما يفسر الوعيد المحسوس لرمزيته التصورية وابتعاده الشديد عن أنماط الخيال الأدبى المحددة المتعارف عليها · ورغم وضوح حقيقة عصابية كافكا ، فانها تمثل للذهن غير الأدبى خطرا ، ان لم يكن اغراء مبتذلا ، لأن هذا الذهن ينزع الى تشويش الحقائق الجلية بالأحكام والتقييمات النقدية ، وليس هناك خطر أعظم من ذلك فى تناولنا للفن الأدبى · وحتى نتجنب هذا الخطأ الشائع يجب فوق كل شىء ادراك أن كافكا شىء أكثر من فنان عصابى وحسب ، انه كذلك فنان يكتب عن العصابية ، أو بمعنى آخر ينجح فى تجسيم حالات العقل التى يتصف بها العصابيون ، من خلال وسائل الخيال· ويعمل عن طريق ذلك على ادماج عالمه الخاص فى العالم الذى نعيش جميعا فيه · وحين تتم هذه العملية ، يكون الكاتب الخلاق قد أدى العملية الأساسية التى يكمن فيها سر انتصاره كفنان ان لم يكن كانسان ، ويكون بذلك قد حرر نفسه من شيطانه ومن حمله الشخصى ويحولنا بذلك الى شركاء له فى نفس الشىء · وبحكم اشتراكنا مع المؤلف لا يكون لنا نحن القراء سبب طبيعى للشكوى · وقد تكون العصابية هى الباعث أو الدافع ، ولكن الأعمال الأدبية هى النتيجة · وفوق ذلك ، فان الكاتب الخلاق هو الشخص الأخير الذى يمكن أن نضربه مثالا فى تمييزنا السوى من غير السوى ؛ فمع كل ما يمكن أن يفعله العالم النفسى من مثل هذا التمييز الفج المفيد ، لا يمكن للفنان أن يلتفت اليه دون أن يقمع فى نفسه احساسه بالحياة فى ذروة تماسكها وتشبعها ·

وقد سبق للروائى الانجليزى « جراهام جرين » أن أدلى بملاحظة مضمونها أن كل كاتب خلاق جدير باهتمامنا ، كل كاتب يمكن أن نطلق عليه لقب شاعر بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، ان هو الا ضحية ، هو رجل تسلط عليه شعور ما » · وكانت الفكرة التى تسلطت على عقل كافكا احساس حاد بالقصور والفشل والاثم ، اثم لا يرجع الى ذنب ارتكبه أو عمل تركه ناقصا ، بل اثم يكمن فى أعماق كيانه الداخلى ، وقد كتب كافكا مرة فى دفتر ملاحظاته : « ان الحالة التى نجد أنفسنا عليها حالة آثمة ، ومستقلة تمام الاستقلال عن الاثم ذاته » · ومفتاح « المحاكمة » هو أن فكرتنا عن الزمن هى الشىء الوحيد الذى يجعلنا نتصور وجود يوم للدينونة ونطلق عليه هذا الاسم ، وما هو فى الحقيقة الا محكمة تعقد جلساتها بصفة مستمرة » · وفى نفس محيط هذا التفكير تبرز الصورة الفكرية التالية : « تلعب كلاب الصيد لاهية فى الفناء ، ولكن الفريسة لن تفلت من يدها رغم ذلك مهما كانت سرعة جريها بين الغابات » · والتطابق بين الانسان يقع هنا مع الفريسة ، ومع كلاب الصيد كذلك باعتبارها ترمز لتطلع الفريسة الى عقاب النفس ، والى رغبتها الدفينة فى أن يتم تضييق الخناق عليها وأن تؤذى وتمزق تمزيقا حتى يتم تكفيرها

عن الاثم الذى يغمرها من الرأس الى القدم . وفى هذه الجملة القصيرة عن الفريسه والكلاب تكمن خلاصة القصة الكافكية الأصيلة : موضوع التسلطات ، النواة القصصية التى تتعلق بضحية القوة الغاشمة : الموضوع الذى يعود اليه كافكا من آن لآخر ، آخذا فى تنويع وتعقيد بنائه بثراء عجيب ، مقيما على أساس بسيط كهذا صرح بناء شامخ ، مثل أسطورة القائد العجوز فى قصة « معسكر الاعتقال » ، وأسطورة القانون فى « المحاكمة » ، وأسطورة البيروقراطية السماوية فى « القلعة » .

ومع ذلك يجب ألا تقودنا بساطة النواة القصصية عند كافكا الى اهمال الصفات التى تجعله واحدا من أشد الشخصيات الفازا فى الأدب العالمى . فاذا تحدثنا عنه باعتباره مؤلفا لأليجوريات دينية فان ذلك لن يفيدنا فى شىء ، فعلى خلاف الأليجوريين الدينيين أمثال دانتى وبنيان ، لا يعتمد كافكا فى كتاباته على المنطق المحدد لأحد الأنظمة الدينية المتعارف عليها ؛ ولا تفترض طريقته الخلاقة وجود أى معرفة خارج الذات . وعلى هذا فهو ليس باليجورى على اى نحو مقبول ، بل الأصح انه مجدد مفرق فى الفردية الى درجة لا يمكن معها وضعه فى تصنيف من التصنيفات المألوفة . وكذلك فان الصعوبة التى تواجهنا فى فهمه تختلف فى مستواها عن تلك التى تصادفنا عند قراءة أعمال روائى مثل جيمس جويس مثلا ، فبينما يكمن غموض الأخير فى طرق الأساليب البراقة التى يشكل بها مادته ، وفى تصميمات بنائه القصصى المتشابكة ، فان الذى يحيرنا فى كافكا هو المعنى المقصود فقط . ويمكن مقارنة كافكا بجويس من ناحية اللغة والبناء ، ورغم ذلك فان رواياته الكاملة قد حيرت كثيرا من القراء . وتزول هذه الحيرة لو أننا تعلمنا أن نصغى بانتباه الى نغماته التى يضرب عليها وان نألف الحرية الكاملة التى ينبذ بها بعض التقاليد الروائية حين يناسب غرضه الرمزى هذا النبذ . وعلى هذا ، فاننا حين نطالع الجملة الأولى من قصته « المسخ » التى تقول : « استيقظ الموظف (جريجور سامسا) فى صباح أحد الأيام ليجد نفسه قد تحول الى حشرة ضخمة » ، نخطىء لو تصورنا ان كافكا يقصد عن طريق هذه الضربة الجريئة أن يشير باصبع الاتهام الى قوانين الطبيعة ، بل يجدر القول بأنه يتهم التقليد الذى يدعو الى مراعاة الأساليب الطبيعية عند كتابة القصص . وهو بعد أن يبعد عن هذا التقليد فى الجملة الأولى من القصة ، يطورها من هذه النقطة بطريقة منطقية واقعية . وان مسخ الموظف هو رمز مركب لغربته عن الحالة الانسانية ، رمز ليقظته على رعب وجوده الحامل الميت ، على الامتعاض اليائس الذى يكمن فى لا شعوره ، حيث تلقى الرغبة التى يحس بها فى أبعاد أبيه والاحلال محله فى محيط العائلة معوقات تنجم عن حاجته الى معاناة عقاب قاس على رغبته المحرمة تلك .

وهناك نوع آخر من الرمزية به نسبة أقل كثيرا من الاستعمالات النفسية ويوجد فى قصص مثل « سور الصين العظيم » . ما هو هذا السور العظيم ؟ انه ايضا رمز مركب للتضامن الانسانى ، للتحقيق الدنيوى للذات ولمحاولة بنى الانسان الحصول على مساعدة القوى الغيبية : ولكن .... لماذا شيد السور بهذه الطريقة المنفصلة حتى انه يسمح للمتجولين فى الشمال أن يتسللوا

خلال المنافذ ؟ والجواب هو أن طبيعة الانسان لا تمكنه من انجاز شيء سوى أهداف محدودة ، وليس بامكانه فهم « الكل » ، ورؤياه منفصمة غير متواصلة كما أن أمنه لا يمكن أن يكون تاما ، ولا يستطيع تحقيق أهدافه الا بطريقة متقطعة جزئية • وليس من شك فى أن ما يسبب تشييد السور فى النهاية بهذا الشكل المنفصل هو « الأمر العلوى » ، ورغم ذلك فان المجادلة فى قرارات هذا الأمر العلوى لا تجد شيئا على الاطلاق ، وليس سبب ذلك أن مثل تلك المجادلة تعد كفرا فى حد ذاتها ، بل لأنها تصبح على المدى الطويل عبثا لا طائل من ورائه • وفى هذا المجال ، لا يستطيع المنطق الا أن يقودنا الى نقطة معينة ، وما هناك من جواب وراء ذلك سوى فى الرمز الذى قدمه كافكا فى القصة للنهر ابان الربيع • ومع مضى حوادث القصة ، يتحول موضوع السور بطريقة نامية حية الى سلسلة من التأملات الشعرية حول العلاقة بين أهل الصين والبلاط الملكى فى بكين ، أى بين الله والانسان • وبينما يتمثل ابتعاد الاله فى قصته « كلب يبحث » كابتعاد فى الزمن ، فان الصور فى قصة سور الصين العظيم تتعلق فى معظمها بالمكان ، فبكين العاصمة بعيدة جدا عن القرويين الذين يعيشون فى الجنوب حتى أنهم لا يكادون يتصورون وجودها . وهم يتعبدون لملوك ماتت منذ زمن بعيد ، ولا تترامى الأنباء التى تصل من القصر الملكى الى أسماعهم سوى مهملة باطلة المفعول • ويستبين عجز الصينيين عن امتلاك امبراطورهم فى واقع حى واحد ، كانعكاس لفكرة الله كما يعرفه الانسان الحديث ؛ وهى فكرة غير محددة ، غامضة ، وفوق كل شيء ، فكرة عتيقة • فالانسان الآن لا يدرك كنه القوى التى تحكم حياته ، فاذا عرف شيئا عن الالوهية فهى معرفة تاريخية خالصة •

والشجار بين المفسرين الدينيين والمفسرين النفسيين لأدب كافكا ليس بذى اهمية عظيمة ، لأن عمله يجمع من المعانى ما يكفى لأن يدعم جزءا من الحقائق التى تخرج بها كلا من هاتين المدرستين • وعلى هذا يمكن تفسير حادثة الأب الذى يحكم على ابنه بالموت غرقا فى قصة « الحكم » على ضوء فكرة فرويد عن الأب الطاغية ، وفى نفس الوقت يمكن تفسيره بأنه اله القصاص وقد هب فى غضب ليحطم الوهم الذى يبين للانسان فى اقامة كفاية ذاتية فى هذه الدنيا ، وليس هناك أى تعارض بين هذين التفسيرين فى أساسهما ، فهما أولا ليسا بمتضادين وثانيا فان قراءتنا للقصة وفهمنا لها ، كما أنها تعتمد على وجهة نظر المؤلف ، فهى تعتمد فى نفس القدر على وجهة نظرنا الخاصة فى حدود معينة • وقد كان فى شخصية كافكا عنصر من الخضوع الجوهرى يمنعه من الشروع فى اثبات أى اتجاه معروف عن الحياة أو أى فكرة عنها . وقال هذا بوضوح فى احدى مأثوراته التى كتبها عن نفسه بضمير الغائب : « انه لا يثبت الا نفسه ، وبرهانه الوحيد هو ذاته ، ولذلك فان خصومه قد تغلبوا عليه فى الحال ، ليس عن طريق دحضه (فهو ممن لا يمكن دحضهم) ولكن عن طريق اثبات ذواتهم » •

أما ان كافكا كان رجلا ذا مزاج دينى فهذا ما لا أشك فيه أبدا . فمع انه قد خلق صورا مبرزة فى الفشل والاحباط الانسانى ، ويميل الى الشعور بأنه سجين فى هذه الدنيا ، وتعذبه الكآبة والعجز والضعف والخيالات المحمومة التى تراود

السجين ، فانه لم يتخل عن ثقته فى معنوية الوجود وروحيته فى « القهـــار » ، كما أنه فقد الثقة فى مجهوداته الأدبية لأنه كان يريد لكتاباته أن تصل الى القوة التى تتمكن معها من رفع العالم الى المملكة « النقية ، الحقة ، الثابتة » . ومع ذلك فليس هناك شىء فى اوراقه الخاصة أو فى رواياته يجيز الزعم القائل بأنه كان يعتقد فى اله خاص به يوافق على النظم الجامدة التى تتصل بالدين الرسمى . وحتى الخطيئة الأولى ، وهى العقيدة القريبة من مركز أعماله ، كان يفسرها فى تبصر بأن أساسها هو « الشكوى التى يرددها الانسان ولا يكف عن ترديدها بأن سوءا قد ارتكب فى حقه ، وأن الخطيئة الأولى قد وقع وزرها عليه » . وينظر العالم الدينى الى هذا القول على أنه مجرد خرافة ، خرافة رقيقة تتهم نفسها ، ولكنه خرافة على أى حال . وقد أشار الناقد الألمانى « فرانز بلى » الى كافكا ـ وكان من معارفه الشخصيين ـ باعتباره « خادما لاله لا يعتقد فيه أحد » . كانت تقواه متناقضة ، مستثناة من التعـريفات والتصنيفات المحددة ، بعيدة كل البعد عن الساكن والتقليدى ، ترفض السلوى التى يقدمها الدين فى اباء ، وتصر رغم ذلك على شـق طريقها الى ايمان « كالمقصلة فى ثقله وفى خفته » ، تقوى لا تجد متنفسا لها فى الأفكار العامة ولا فى الفكر المنطقى بل فى لغة الفن فقط ؛ تلك اللغة التى تقدم كل شىء ، ثم لا تزعم شيئا ولا تؤكد شيئا ولا تثبت شيئا فى نفس الوقت .

ولد كافكا فى عام ١٨٨٣ من أبوين يهوديين من عائلة متوسطة . ويبدو أنه قد فقد ثقته بنفسه فى مطلع حياته ، واستبدل بها كما يقول : « شعور لا حد له بالاثم » . وقد وسمت حالات الضياع والفشل وفكرة عدم وجود حل لأبسط المشكلات الانسانية ، وسمت فترة شبابه بالحزن والهمت فنه بعد ذلك . ويقف أبوه فى مركز حياته كشخصية تتفق تمام الاتفاق مع فكرة « فرويد » عن الرعب المتمثل فى « الأب الأول » . كان أبوه نشطا ، صلفا ، متقلبا ، ناجحا ، محترما ، وكان يتعرض بالسخرية لميول ابنه غير العملية وتجوالاته الروحية دون أن يقصد سوءا من وراء تلك السخرية بل هى طبيعته أملت ذلك عليه . وكانت الأم رغم شفقتها على ابنها مستغرقة بجل عواطفها فى أمور زوجها لدرجة جعلتها عاجزة عن أن تتخذ لها دورا مستقلا . وهكذا تعرض فرانز الصغير لتطرفات العزلة واستبطان النفس ، تلك التطرفات التى كانت تلغى نفسها دوما عند التفكير فى التكامل عن طريق الزواج وانجاب الأطفال وممارسة اعباء وظيفة محترمة (مهنة حقه .... المهنة المناسبة) وكان تأثير أبيه عليه ظاهرا لدرجة جعلته يتعثر فى حديثه أمامه رغم أنه يتحدث عادة بطلاقة فائقة . وقد كتب فى خطاب وجهه الى والده بعد ذلك : « لقد بدأت تتخذ تلك الصفة الفاضحة التى يتصف بها جميع الطغاة ، الذين يعتمدون على تفوقهم على شخصياتهم وليس على الحق » . ومن الواضح أن مصدر فكرة السلطة التى تشيع فى معظم أعماله يرجع الى موقفه المتناقض تجاه والده ، موقف يتمثل فى نفور فياض وشعور بالمماثلة أيضا . ونحن نرى البطل فى أعمال كافكا القصصية الرئيسية والذى تظهر فيه عناصر من شخصيته الذاتية ، نراه دوما وقد قهرته قوى ما فوق الطبيعة ، تلك القوى التى تجد دائما ما يبررها ويعلى من شـأنها حتى ولو ظهرت فى ثياب بيروقراطية ظالمة متوعدة . ويحكى ماكس برود ، صديق كافكا الحميم ومؤرخ حياته الذى نشر كتاباته

بعد وفاته ، يحكى أنه حاول أن يدلل لرفيقه على خطأ احساسه الذاتى بالحقارة وخطأ مغالاته المزمنة فى الاعلاء من شأن والده • ولكن هذه الأحاديث كانت تذهب قبض الريح لأن كافكا كان يدلى بسبيل من الحجج يصد بها أقوال صديقه ويفنـدها • وقد تحقق ماكس برود أنه لا يمكن لامرىء أن يتساءل عما كان يجدى كافكا قبول أبيه له الا من وجهة نظر أحد الغرباء البعيدين عن كافكا واحساساته ؛ فقد كان واضحا ان حاجته الى هذا القبول تمثل عنده شعورا فطريا دام الى آخر أيام حياته •

و فى عام ١٩٠٦ حصل كافكا على اجازة القانون من الجامعة الألمانية فى براغ ووجد عملا بعد ذلك فى شركة للتأمين ضد الحوادث • غير أن اهتماماته الحقيقية كانت تتمثل فى ميدان الكتابة ، وقد مارس هذا العمل الاخير بكل حماس أخلاقى ، معتبرا اياه بذلا مقدسا للطاقة الانسانية وخطوة للاتصال ببنى الانسان ، وانعكاسا باهرا للادراك الدينى • ورغم ذلك فان الكتابة لم تكن لتقيم أوده ، فبالاضافة الى اعتراضه من ناحية المبدأ على تحويل الموهبة الأدبية الى مصدر للمنفعة المادية ، كانت أمامه عقبات أخرى فى هذا السبيل • وكان يكتب فى سرعة خاصة به ، يملؤه سخط متوهج • وكانت تتملكه فى نفس الوقت حاجة ملحة لأن يقف على قدميه ، لأن يستقل سريعا عن عائلته • ومع ذلك فقد عملت وظيفته فى شركة التأمين على تفكك شخصيته للتناقض التام بينها وبين مهنة الكتابة •

ويكتب كافكا فى خطاباته عن الأدب باعتباره أمله الوحيد فى السعادة وتحقيق الذات • وعندما كان يتحدث عن الحالات التى تشبه حالات الغيبوبة والتى تجعله يقترب من الاحساسات الانسانية العادية ، يضيف بأن هذه الحالات كان ينقصها هدوء الالهام مما يجعلها لا تساعد على الكتابة الحسنة وهو يتحدث عن نفسه على أنه بسبيل خلق « عقيدة سرية جديدة » « كابالا » غير أن اجاباته عن معنى هذه العقيدة كانت مشتتة متناقضة • (وقد قال « برود » بحق ان اصراره هذا كان اصرارا أخلاقيا وليس فكريا) ونحن نقرأ فى يومياته : « اننى أمثل العنصر السلبى للعصر الذى أعيش فيه .... وبخلاف كيركجارد لم تقدنى يد المسيحية فى حياتى ، ولا أنا تعلقت كالصهيونيين بأحد أطراف أردية اليهود الخيالية » • ويبدو أن الشائبة الوحيدة فى علاقة كافكا بماكس برود كان مبعثها برود كافكا تجاه الصهيونية ، وكان قد كتب مرة : « ماذا يجمع بينى وبين اليهود فى الوقت الذى لا يكاد يوجد هناك ما يجمعنى ونفسى ؟ » .

وكان عام ١٩١٢ عاما مصيريا فى حياته ، فقد قابل فيليس ب ، تلك الفتاة التى جاءت من برلين والتى كان يرغب فى الزواج منها ولكن الظروف أجبرته على الابتعاد عنها ، وقد عانى شجنا طاغيا من جراء فسخ خطوبته لها مرتين • كان يشعر أن الزواج عمل مستحيل بالنسبة لرجل مقطوع الصلة فى مثل ظروفه ، رجل يفتقد الاستقلال الاجتماعى والتوافق الآمن فى حياته • وقد شهدت هذه السنة كذلك التقاء مقاصده الأدبية مع منهجه المستمر فى سبر غور نفسه الداخلية مما أتاح له أن يتقدم وئيدا بخطى ثابتة فى عمله • ولو قارنا ما كتبه ابان خريف هذا العام بكل ما كتبه قبل ذلك لبدت هذه الأخيرة مجرد تخطيطات ناقصة • وفى ليلة ٢٢ سبتمبر من نفس هذا الخريف كتب « الحكم » فى جلسة واحدة • وقد قال بعد ذلك انه حمل

عبء ورره على ظهره أكثر من مرة فى خلال هذه الفترة التى امتدت من العاشرة مساء حتى السادسة من صباح اليوم التالى • والحكم هى أول قصة كافكية تظهر فيها سمات أدبه المعروفة كما أنها أول قصة سبر فيها المؤلف موضوع الصراع بين الأب والابن الى الأعماق • وفى نفس الشهر أو الشهر الذى تلاه ، كتب كافكا الفصل الافتتاحى الطويل لروايته الأولى « امريكا » ، وفى نوفمبر أكمل أعظم قصصه : « المسخ » ويحقق فيها تأثيرا فعالا عن طريق تناوله الكامل للتفصيلات الواقعية التى تساند وتدعم الرؤيا الكئيبة لموضوعاته القصصية . وهذه القصة تجسيد حى لصفتى الضرورة والتطرف ، تجسيد لاحساس امرىء جثم الوجود على أنفاسه وليس أمامه الا الانتماء الى هذا الوجود . ويمس هذا كله شعورنا حين نقرؤه فى اعمال كافكا لأنه يشتمل على المنهج وعلى المضمون ، على الطلب وعلى الاستجابة ، على الهدف وعلى الطريق فى آن واحد•وعن طريق هذه الصفة «الوجودية» فقط ينجح كافكا فى تجسيم عالمه أمامنا ، وينقل نداء الحقيقة الذى لا يخطىء الى عناصر هذا العالم التى لم تكن لتبدو بدونه سوى نتاج غريب ضال • ويمكن لى أن اقول ان كافكا قد حقق تماما ولاول مرة فكرته الخاصة عن الكتابة فى قصته « المسخ » ، وهى فكرة تتصف بباطنية والحاح لا يوصفان • وقبل كتابة هذه القصة بفترة طويلة ، حاول كافكا أن يشرح معنى الكتابة كما يتراءى له ، فقال فى خطاب الى صديقه « أوسكار بولاك » : « ان الكتب التى نحتاج اليها هى تلك التى تؤثر فينا تأثير الكارثة ، تلك التى تجعلنا نقاسى نفس المعاناة التى نمر بها حين يموت لنا أحد الأقارب الذين نعزهم أكثر من أنفسنا ، تلك التى تجعلنا نشعر كأننا على شفا الانتحار أو تائهين فى غابة بعيدة عن العمران ، وهكذا يجب على الكتاب أن يعمل عمل الفأس فى البحر المتجمد داخل نفوسنا » •

وفى أكتوبر من نفس العام ، كتب « ماكس برود » فى يومياته : « ان كافكا فى حالة من النشوة ، قائما يكتب طوال الليل ••• » وأيضا « •••• ان كافكا تنتابه حالة غريبة من النشوة » • وتتضمن هذه النشوة شيئا أكثر من الاعلاء وشعور الحرية الذى يمر به الكاتب عادة حين يتقدم فى عمله الفنى تقدما محسوسا • ويستبين من الطبيعة الاكراهية لقصتى الحكم والمسخ ومن تعليقات كافكا عليهما فى يومياته أن هاتين القصتين كانتا الفأس الذى حطم بحر الثلج بداخل نفسه ، أو بمعنى آخر ، ان عملية خلقهما تضمنت النفاذالى طبقات من مادة مكبوتة لم يكن فى الامكان ادراكها قبل هذا الوقت • ويبدو كما لو أن المعاناة العصابية فى كافكا والفنان فيه تعاونا واتفقا فى رواياته التى تتميز بالحركة النفسية فى سبيل الحفاظ على الحياة الثمينة• ويمكن للمرء فى دقة أن يقول عن مثل هذه الأشياء مع « بيتس » انه كلما كان الخلق لا شعوريا كلما كان أكثر قوة •

وتقوم رواية أمريكا ، التى بدأ كافكا فى كتابتها فى تلك الفترة ، على مبعدة من أعماله الأخرى ، فهى تفتقد ذلك العنصر غير الطبيعى ، وليس فيها ذلك الاستدعاء للقوى الخفية أو أى تصوير ملغز للعالم المعروف المألوف ، وهو الأسلوب الذى اتبعه كافكا بعد ذلك من أجل تطعيم رواياته بعنصرى اللامعقول والابهام • وهى الرواية

الوحيدة من بين أعمال كافكا التى أطلق الفنان فيها العنان لنزعته نحو كتابة الملهاة. ورغم ذلك فانه لم يقصد من وراء كتابتها عرض نقائص معينة بل تصوير الموقف الانسانى المتميز . وقد كتب كافكا فى دفتر ملاحظاته : « لو أن حوادث الملهاة نظمت تنظيما متناسقا لتحولت الى حقيقة واقعية » .

ويمكن لهذه العبارة أن تكون شعارا للرواية البيكاريسكية أمريكا » . وهى تحكى مغامرات صبى فى السادسة عشرة من عمره ـ كارل روسمان ـ من أهالى براغ ، فى مدن الولايات المتحدة التى طغت عليها الآلية . ولم يكن كافكا قد رأى الولايات المتحدة قط عند كتابته لهذه الرواية ، بل انه كون صورة محددة عنها فى ذهنه وحسب .

وكان كافكا يميل بحكم نوبات الضياع والفشل التى انتابته الى الاطلاع فى دهشة واعجاب زائد على كل أمثلة الارادة البناءة ، على قدرة الانسان على اكتشاف مهنته الحقيقية ، على امكانه تحقيق التكامل مع مجتمعه ، هذا المجتمع الذى كان يربط كافكا بأعظم القيم والذى اعتقد انه يكمن بعيدا عن متناول يده . ويمكن مطابقة الأسى الذى كان يغمره بصفة دائمة بالذى شعر به بطل قصة هوثورن « مكتب المخابرات » الذى لم يكن يكف عن الصياح قائلا : « أريد مكانى ، مكانى الشخصى . مجالى المناسب ، أريد عملى الذى خلقتنى الطبيعة لأؤديه حينما شكلتنى على هذا النحو والذى بحثت عنه طوال حياتى عبثا ! » ولهذا السبب كان « بنيامين فرانكلين » من بين الشخصيات التاريخية المحببة عند كافكا ، وهو الذى نجح فى كل ما تولى من الأمور ؟ كما أن كتاب « السيرة الذاتية » لفرانكلين واحد من مصادر رواية « أمريكا » ومع ذلك فلا يظن أحد أن كافكا قد فتن بفكرة ريتشارد المسكين عن نفسه او بفلسفته العامة ، ولكنه اهتم من نموذج الطبيعة الأمريكية هذا بعنصر القدر الذى لا يمكن تفسيره ، ذلك العنصر الذى ظهر على شكل ايجابى فى هذا العمل . وأغلب الظن أنه قرأ توصيات « ريتشارد المسكين » التى بحث فيها على اتباع الفضيلة ، وقائمة الأمثال التى أعدها عن سكينة النفس والاعتدال فى النفقة والاعتدال فى الطباع ، والأعتدال فى كل شىء ، وما شابه ذلك من الموضوعات كما يقرأ المرء سفرا عن الاستراتيجية . قرأ كافكا هذه الأعمال ، وفسر هذه الأقوال الحكيمة الكئيبة على أنها خطوات فى تلك اللعبة المتشابكة التى يسعى فيها المرء لنيل الحظوة عند القوى المجهولة التى تسود قوانينها كل شىء رغم أن مرماها ومعناها غير معروفين ولا يمكن معرفتهما .

وكان ما جذب كافكا نحو فرانكلين ذلك المظهر الذى يجعله شبيها بأوليس وقد تصور أن أمريكا لدى فرانكلين مثل البحر الأبيض لدى البطل الأسطورى. وكان يعتقد أن الأمريكيين لم يرسموا الابتسامة على شفاههم الا عن طريق الحماية التى كفلها لهم أبعاد العالم الجديد .

ويتسم بطل « أمريكا » (كارل روسمان) بالبراءة حقا ، وهو فى هذا المجال يختلف اختلافا جوهريا عن «ك» . بطل روايتى « المحاكمة » و « القلعة » ، ... ك .

يتناول مشكلة الاثم بطريقة تشريعية فى معظمها متأثرا فى ذلك بالمسيح أكثر ويحاول الانتقام من الكوارث التى نزلت به ، ويجاهد فى سبيل اطلاقه سراحه باثبات براءته من ارتكاب أى جرم عن طريق اجراءات منطقية · أما كارل فانه يعانى من الاضطهاد دون أن يفكر فى الانتقام أو يعكف عن التفكير طويلا فى الاساءات التى ارتكبت فى حقه ، ولم يفه بكلمة احتجاج حين طرده عمه الثرى بعناد من منزله دون أى سبب على الاطلاق ، بل بدأ يلائم نفسه فى هدوء مع الموقف الجديد · وهو ليس بشخصية ذاتية ، بل أن طاقته من ذلك النوع الحنون الذى ينساب فى أضيق المسالك فى وداعه ولطف ·

ويصيب كارل شيئا من سخرية كافكا ، فقد وقع فى أحابيل سلسلة من الحوادث والأخطاء وسوء الفهم دقيقة فى ظروفها سحرية فى تتابعها · وأحاط حسن الحظ بخطواته الأولى فى أمريكا ، تلك البلد الذى لم يجرؤ على السخرية فى آليتها البيروقراطية الهائلة المحيرة عن قرب ·· غير أنه لم تمض سوى شهور قليلة حتى دهمته الكوارث فجأة واضطرته الى البحث عن عمل فى رفقة اثنين من اللصوص العاطلين : « ديلامارش » و « روبنسون » · وبعد محاولات عدة ، بشىء ضيقة مع امرأة لها روح أثينا الهة الصيد فى صورة مديرة أحد الفنادق · ولكنه يفقد منزلته تلك أيضا حين يبعده رفيقاه اللصان عن عمله ليرغماه بعد ذلك على الالتحاق بخدمة « برونيلدا » ، وهى امرأة تشبه الساحرة « كيرلى » فى الجو الذى تعيش فيه . وقد دفعت اللصين الى شهوانية قذرة (وانى أعتقد أن الفصل السابع « الملاذ » الذى يصف المطاردة المضحكة بين كارل ورجل البوليس ، وملاقاته « برونيلدا » الفريدة ، والاستعراض الانتخابى ، وحديثه مع الطالب الذى يتغذى على مشروب القهوة ، لهو عندى من أحسن ما كتب فى الروايات الحديثة) · وفى النهاية يفر كارل من معقل برونيلدا ليجد عملا فى مسرح أوكلاهوما الطبيعى ، وهو أحد المشروعات الكريمة الخيالية يفتح للعاطلين الباب الى جنباته الرحبة حيث يحصلون على عمل ويتم التوفيق بينهم وبين المقاصد الخفية للقوى التى تحكم حياة الانسان ·

ولم يحاول كافكا أن يقدم فكرة حقيقية عن امريكا ، تفاصيله عنها لا تطابق الحقيقة بالمرة ، غير ان الصورة فى مجموعها تكون حقيقة رمزية غريبة · واذا كانت هذه الرواية من وجهتها الواقعة مجرد محاكاة ساخرة لحياة « ريتشارد المسكين » (أى لحياة الأمريكيين عموما) فهى من وجهتها الأدبية تستمد شيئا من أدب ديكنز · « فدافيد كوبرفيلد » الولد الطيب الذى يستخدم ذكاءه فى أوقات المحن والتجارب للاستفادة الى أقصى حد مستطاع من الفضيلة التى يتحلى بها ماهو الا طراز لكارل بطل « أمريكا » · ولكن تقليد رواية ديكنز لهذه الطريقة يعتبر تناولا هزليا لها وهو شبيه باستخدام جويس لملحمة هوميروس فى روايته « يوليسيس » ·

وان المرء ليعتقد فى رواية « أمريكا » ذلك المضمون العميق الذى يميز أعمال كافكا الاخرى · ومن الواضح أن خياله لم يدعم تلك المجهودات التى بذلت فى القصة للسير بحياة أحد الشبان الى نهاية سعيدة ، بل كان خياله أقرب الى القلاع والمحاكم المخيفة حيث يطوف ك . بحثا عن العدالة حتى يكتشف فى النهاية أن العدالة بقدر

ماهى حتمية فانها ليست بذات معنى · فرواية « أمريكا » اذن تندرج تحت ما يمكن أن نطلق عليه الجانب النفسى لفن كافكا · وتبدا حركة هذا الفن من علم النفس الى علم الأساطير التجريبى (من الملاءمة الفورية بين حالات شخصية داخلية الى عرض هذه الحالات على العالم الخارجى) وهكذا فان الأساس الصحيح الذى تقوم عليه أعماله يتجسم فى البداية ، كما يحدث فى « الحكم » و « المسخ » ، فى شخصية أب « حقيقى » ، أب يمكن بسهولة مطابقته بفكرة فرويد عن « الرومانسية العائلية » بينما لم يعد فى الروايات التالية الأكثر طولا للأب شخصية يمكن التعرف عليها فى الحياة المألوفة ، فقد تم اقصاؤه عن مجال الأسرة ، وأصبح فكرة عامة : كقوة من القوى الرسمية ، مقدسا ، قصيا ، خفيا ، مثل القانون أو المحكمة أو مثل طبقات الموظفين الذين يقطنون القلعة ·

وفيما يختص بهذا الخط من التطور ، يمكن اعتبار قصة مستعمرة العقاب قصة انتقالية · وقد كتبها كافكا فى نوفمبر ١٩١٤ حين بدأ العمل فعلا فى رواية « المحاكمة » · وتتضح الاشارات الدينية فى هذه القصة أكثر مما سبقها من القصص ربما لانها تبين تأثير كيركجارد ، الذى اكتشفه كافكا لأول مرة فى عام ١٩١٣ · ويستبين القارىء من شخصية القائد العجوز الذى تنبعث ذكراه المخيفة فى قصة مستعمرة العقاب بعض السمات الفردية التى يتصف بها الأب « الحقيقى » ، وفى نفس الوقت تتخذ هذه الشخصية الشكل الأسطورى الملغز الذى يتخذه رمز السلطة فى روايات كافكا التالية ·

وعلى المدى الطويل ، لم تفلح محاولات كافكا السابقة من سبر غور حياته النفسية فى أن تنقذه من مخاوفه التى دمرت أعصابه ولا من شعوره بالاحتقار الذاتى · وداوم على شجاره مع نفسه ، وعلى خططه التى وضعها لعقاب هذه النفس ، بل انه فكر فى الانتحار : « لقد حمل بلزاك » عصا مكتوب عليها هذا الشعار « اننى أحطم أى عقبة » ولكن شعارى هو « كل عقبة تحطمنى » ، وقد أثر تذبذبه المستمر بين الكتابة وبين عمله على صحته كثيرا ، فعانى من نوبات الصداع والأرق ، حتى هاجمه أخيرا مرض السل واضطره الى قضاء عدة سنوات فى المصحات · وقد اعتبر كافكا مرضه حتمية نفسية : « لقد تآمرت نفسى مع رئتى من وراء ظهرى · » ولم يتحقق من حاجته الى الاستقلال بحياته الا فى عام ١٩٢٣ حين قابل « دورا دايمانت » ـ وهى فتاة نشأت فى عائلة محافظة فى بولندا ـ ووجد نفسه فى حالة طيبة تسمح له بالانتقال معها الى برلين · غير أن الوقت كان قد فات لتعويض ما فقده من سنوات المرض والشقاء · وفى يونيو ١٩٢٤ مات كافكا فى احدى المستشفيات بالقرب من فيينا من داء السل الحنجرة ، وكان عمره واحد وأربعون عاما ·

ولم ينشر كافكا ابان حياته سوى بعض أعماله القصيرة كما أنه لم يكمل أيا من رواياته الثلاث الى نهايتها ·

وقد كتب قبل وفاته الى « ماكس برود » طالبا منه احراق جميع المخطوطات التى خلفها وراءه · ولحسن الحظ أخذ هذا الصديق على عاتقه مسئولية اغفال هذه الوصية الاخيرة اليائسة ·